

كانوا يعدلون من ألفاظ الشعر إذا كانت القاعدة النحوية التي يجذبونها تقتضي ذلك. ولقد قال الدكتور إبراهيم أنيس مرة إن الشعر المنسوب إلى بعض المولدين على أوزان غير أوزان العروض المعروفة هي من وضع من سَمَّاهم بمولدي العروضيين⁽¹¹⁾ ولم تك من قيل الشعراء.

بهذا صارت غايات الرواة قيدا يحاصرهم ويوجه اختيارهم، وزاد هذا من مآسي القصيدة الجاهلية، حيث حاصرها الزمن وحاصرتها الظروف فأضاعها ما عدا القليل، وتدخلت في هذا القليل غايات بعض الرواة، فضلت بعض هذا القليل، وشوّهت البعض الآخر. وفي وسط ذلك رحلت الآراء والأهواء - كما يقول ابن سلام⁽¹²⁾ - فللرواة الآراء وللقبائل الأهواء. وبين هذه وتلك وقع الشعر.

وثالث الحصارات هو نتيجة للسابقين، وشاركهما في الضغط على ذاكرة الراوي، ودفعها إلى أفعال هي في حقيقتها ضد الشعر. ولربما كانت الأخطاء المرتكبة في حق القصيدة الجاهلية إنما تقع عن حسن نية أشار إليها ابن سلام بقوله: (وجدنا رواة العلم يغلطون في الشعر، ولا يضبط الشعر إلا أهله)⁽¹³⁾. وفي هذا القول شهادة على وجود أهلٍ للشعر يضبطونه، ولسنا نشك في ذلك. ولكننا نقول - فحسب - إن هناك من يغلط وهناك من يخطئ وهناك من يتحل. وهؤلاء خلطوا عملاً صالحاً بأخر سيئ. وعلينا أن نميز بين العاملين، لأن ضبط الشعر يحفظ ويحافظ على ذاكرة النص. أما من غلط من رواة العلم فقد أحلّوا ذاكرتهم داخل القصيدة فأربكوها وأربكوا الدارسين من بعدهم - كما سنرى لاحقاً -.